فى العصور الإسلامية الأولى

شعراء فكهون

يُرْفَعُ كابوس الرومان عن صدر مصر، وتضئ فيها تباشير فجر جديد، هو فجر الإسلام، وتصبح ولاية عربية، وتظل معها أدوات فكاهتها وسخريتها. ولا تكاد تثبت شخصيتها وتستقل عن الخلافة لعهد ابن طولون حتى نجد لها شاعراً فكها مشهورا كان ينبز بالجُمَل الأكبر، وكان لعبة للأمراء يمدحهم وينادمهم متظرفا متملحا، يَرْوى لهم النوادر والنكت التى تطرفهم، وهذه أحدى نوادره، قال: «كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى، تعاهدوا فيما بينهم، لكسلهم، أنه إذ سقط فى أفواههم شيء أكلوه، وإلا فلا، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم، فقال له الذى يليه: ضعها فى فمى، فأجابه: لو استطعت أن أضعها فى فمك لوضعتها فى فمى».

وبمثل هذه النادرة كان الجمل الأكبر يخف على ابن طولون وغيره، وخلفه على هذه الوظيفة من المنادمة والمفاكهة شاعر آخر لعصر الأخشيد فلقبوه بالجمل الأصغر، وكان مثل صاحبه خفيف الروح له قدرة بارعة على التسلية والترفيه. وكان بجانبه شاعر آخر يسمى سعيدًا، وكان ندبًا للأخشيد وكان يؤثره لما فيه من الحلاوة والهزل، وكان يلقب بقاضى البقر هزءًا ودعابة له.

سيبويه المصرى

لعل مصر لم تعرف فى عصورها الإسلامية الأولى فكها ساخرا على نحو ما عرفت فى شخص يسمى سيبويه المصرى رافق الدولة الإخشيدية، وكان يظهر التباله والحمق والجنون، ويضع كل ذلك مسرحا ينفذ منه إلى نقد هذه الدولة الأجنبية ونقد موظفيها المختلفين، نقدا فيه مرارة وخبث، وفيه تنفيس عما قد يقع على الناس من ظلم فى هذه العهود الإقطاعية الجائرة.

ولم يكن أحد فى عصره إلا ويخشى معرة لسانه، وكان يقف فى الأسواق يصيح بسبه وهجائه والناس يجتمعون ويضحكون. ولم يكن يسب ويهجو بلفظ قبيح، إنما كان ينهر ويزجر، مستخدما آية قرآنية أو حديثا أو سجعا يولده لوقته.

ويسوق ذلك بشىء من التخليط، فيُضْحك، إذ يصبح مظهرا للشعوذة وتشويش الفكر، ويقول السذج مجنون، ويقول العقلاء

بل جرىء لا يموِّه ولا يمخرق، يواجه الحق ويذيعه دون تدليس أو تزييف.

وطبيعى أنه لم يكن يقصد إلى الإضحاك، فهو مؤمن بما يقول فى الإخشيد وغيره، وهو جاد كل الجد. ومن هنا يكون الضحك، لأنه يخالف مألوف الناس، إذ يرونه يعمد إلى سب أميرهم ورؤسائهم فيتجمعون حوله يشاهدونه، وكأنهم أمام مسرح هزلى. فمن ذلك أنه كان يطوف على حماره يوم جمعة. فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الإخشيد أثناء مروره إلى الصلاة فتوسط الجموع وصاح: «ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وتغلى لهم قلوب واجفة؟» فقال له رجل: «هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة»، فقال: «هذا الأصلع البَطين، المسمَّن اليدين، قطع الله منه الوَتين، ولا سلك به ذات اليمين! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قَبِل الله له صلاة، ولا قبل له زكاة، وعَمر بجثته الفلاة».

ولا ريب فى أن هذا الهجوم على الإخشيد كان يحدث تنفيسا عن الحرج فى نفوس سامعيه، فيضحكون ويغرقون فى الضحك. وكان يتخذ ذلك دائما منحدرا له إلى هجائه اللاذع. ومن الطريف أنه كان يورد هجاءه على الناس وهو واقف معهم يعظهم، إذ كان فقيها صالحا، فمن ذلك أنه بغتهم مرة أثناء وعظه، فقال: «حصلت الدنيا

على أقطع وأقرع وأرقع»، يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمى صاحب بغداد، وبالأقرع سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب، وبالأرقع كافورا، وكانت قد صارت إليه شئون مصر. وكان يسميه فى مواعظه الخصىَّ لا يبالى.

وهذا كله هجاء سياسى لاذع كان يعتمد فيه سيبويه المصرى على مجاميع من الأخطاء فى الكلام ينفث فيها سمومه، ويسمع الناس من حوله هذا الهجاء، فيقولون مجنون يهذى، وهم يفحصون الأرض بأقدامهم ضحكا وسخرية بمن يعرض لهم. وارتفع نجمه لهذا الهجاء، وجالس أونوجور بن الأخشيد ونادمه كما جالس الماذرائى الوزير ونادمه. ولم يترك فى عصره موظفا كبيرا ولا قاضيا إلا تعرض له، وكانوا جميعا يرهبونه، ويرسلون إليه بالهبات والهدايا حتى يفدوا أنفسهم منه، ويفلتوا من لسانه. ومما روى الرواة من شعره قوله:

ما ليلةُ المشتاق بـا عدت النَّوى عنه أنيسه
أو ليلة الملدوغ حا ذر ميتةَ النفسِ النفيسه
بأمدَّ من ليل الظريـ ـف إذا تجوَّع للهريسه

وفى هذه الأبيات ما يدل على ظرفه، فهو كان ظريفا من ناحية، ولذلك نادمه أونوجور وغيره، وكان من ناحية أخرى هجاء مصميا، يرمى بالكلام، وكأنه يرمى بالسهام.